مجلة كلية

# الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

# محمد رسول الله ﷺ
## الصورة والواقع

الأستاذ
عمر لطفي العالم

لم تستأثر شخصية في الشرق أو في الغرب باهتمامات المفكرين والباحثين على اختلاف أجناسهم وتوجهاتهم كما استأثرت بها شخصية الرسول العربي ﷺ. ومن الصعب التنبؤ بحجم ما كتب وقيل في شأن رسالة الرسول، فقد اجتذبت دعوته العقل منذ ظهوره، وامتلكت ناحية القلم بعد وفاته، وستظل الشغل الشاغل لكل طالب حقيقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وحين نبحث عن السبب، ونقتصي حوافز الاهتمام، نوشك أن

لا نجمع على رأي ولا نستقر على جواب، لا لأن النبي في تعدد مناقبه، وشمولية دعوته التي جمعت كما لم يجمع بين مثلها بين الدين والدنيا والآخرة والأولى ـ شكل ظاهرة استعصى على بعض الناس فهمها، وكان الرأي السائد دائماً أن الأنبياء واحد، تجمع بينهم صفات مشتركة وملامح خاصة، هي المقياس المعتمد والمعيار الثابت للحكم لنبي أو عليه ولا ثبات نبوته أو نفيها.!

إننا لا نسعى من وراء هذا الكلام إلى تقديم انطباع بوجود مثقال ذرة من شك، فالنبوة بالنسبة لنا مسلّمة غير قابلة للنقاش والنظر، وكل ما أردنا قوله وتصحيحه، هو بعض المفاهيم الخاطئة من خلال الرأي وضده، وتشخيص جانب من أزمة أسهمنا فيها بقدر وفير حين قدمنا للعالم مادة مشوشة وروايات مختلفة حول السيرة النبوية. إن الحاضر مرآة الماضي ولا بد لنا من عودة إلى ذلك الماضي لعلنا نجد عنده الإجابة لأسئلة معاصرة كثيرة.

يمكن القول: إن الإطار الفعلي الذي وضعت فيه صورة الإسلام على مدى قرون طويلة، كان سلسلة من الإفتراءات والتهم التي تناولت شخص الرسول أولاً والرسالة التي بعث بها ثانياً. ولقد أجمل مؤلف كتاب الإسلام والغرب[1] خطة الأيديولوجيين المسيحيين لخلخلة جذور الإسلام في عبادة وردت في باب النبوة المزيفةPSEUDOPROPEIECY: «لقد بدا لأولئك الأكثر اهتماماً أن الهجوم المسيحي يجب أن يُوجه بمجمله إلى تعرية الرسول، فإذا أمكن إظهاره على حقيقته، أي تجريده من صفات النبوة، فإن ذلك سيؤدي إلى انهيار صرح الإسلام كله»[2].

ولقد تبارى الكتّاب والمنظّرون المسيحيون، أيّهم يكيل أكبر قدر من السّباب لشخص الرسول ﷺ، وبلغ الحقد ذروته على يد بطرس المبجل من بواتييه وبيدرو وبطرس المبجل. إننا لا نشعر بأية متعة ونحن نردد هذه الأراجيف. وما نقوله على مضض إنما هو لتغطية مرحلة هامة من تاريخ أوروبي حافل بكل أنواع الكيد للإسلام. وما دمنا بصدد الحديث عن ذلك المبجل(PETERVENERABLES)، وهو شخصية لها وزنها في تاريخ الكنيسة، فلنذكر له هذه العبادة التي أطلقها قبل سبعة قرون تقريباً ولا زالت تشكل لدى

(1) Dorman.D. Islam and the west. Edmburg 1960-1966 P.48-67-68.

(2) Lohmanu theodor. Islam jahr?. 4 teil.

الكثيرين منهم دليلاً دينياً: «إن أوضح منهج لمصداقية النبوة، هو النبح الذي يتضمن رفض دعوة محمد)[3]. ولقد أردف ذلك بتحذير جاء فيه: (النبي لا يقول إلا الصدق لأن الرب صادق لا يصدر عنه كذب. والثاني الإحسان والعفة. والثالث المقدرة على صنع المعجزات. والرابع شريعته التي أتى بها أن تكون مقدسة وخيّرة، تقود الأمم إلى عبادة آله واحد، والبشر إلى طهر الحياة والوئام والسلام. وكل من أظهر نقيض ذلك لا بد وأن يكون نبياً مزيفاً)[4] واختلفت الصورة على يد المستشرق فوك بعد دخول بعض العناصر الإيجابية: «.. يعتبر محمد حتى عصرنا هذا في عداد الشخصيات التاريخية العالمية التي لا يُختلف في شأنها. فقد تفاوت الحكم عليه إبان حياته كرسول مرّة، ومريض يبعث على السخرية تارة، وارتفعت صورته بعد وفاته في نظر قومه إلى مرتبة فوق بشرية، بينما طلاها هجوم الخصوم بأشد الألوان حلكة، لكنه منذ أن لقي تقديراً منعنعاً من جانب المراقبين الدينيين المتحررين، تفاوت حكمهم عليه وتراوح بين النظر إليه كحكيم فذ.. إلى مصروع يستدر الشفقة.. إلى..)[5]. وكان لا بد أن يمضي زمن على هذه الملامح قبل أن تأخذ في الزوال والاضمحلال لتحل محلها أفكار وانطباعات جديدة بعد أن أخذ الحق يجد طريقه إلى عقول المتبصرين والراغبين في رؤية الحقيقة: (.. لو كان محمد يعاني منذ طفولته من مرض عضال حقاً، لما تخلى عن هذه الذريعة أبداً. بل من غير المعقول أن ينجز رجل مريض ما أنجزه محمد. ولا سبيل إلى إنكار عدد من الحقائق، فقد كان تاجراً موهوباً بارد الطبع، وأن قراراته عادة ما كانت تصدر عن غريزة سياسية ذكية متبصرة، وإنه كان دليلاً نشطاً للقوافل، وقائداً بعيد النظر للدولة ولمجتمع ديني نامٍ على حد سواء، وهذه كلها تظهر بما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان سليماً ومعافىً. وقليلاً ما تحدث الكتاب والمعلقون في الحقل الديني منذ زمن غير قريب عن شذوذ وشطط. وتضافر الجميع يداً بيد يجمع بينهم الطموح لإسقاط خصم حيثما وجد من يحمل قيمه، وكانت كل وسيلة لبلوغ ذلك الهدف مشروعة. ولم يجرْ تقويم شخصية على النحو السيء الذي قُيمت به شخصية محمد خاصة من قبل

---

(3) Islam 48.

(4) Fück.Y. Omgenahta"t des aralishm propheten Z.D.M.E. 90/1936.

(5) Lohmanu. The.P.462.

الكتاب الغربيين، الذين كانوا مهيئين لتصديق أي شيء رديء ضده. وحين كانت تخفف تهمة إلصاق صفة الدجل به، سعوا إلى محاولة وصمه بالمرض والجنون لنفي صفة النبوة عنه. غير أن كل الاطروحات الدراسية التي قالت بتعرض الرسول إلى نوبات صرع منذ طفولته المبكرة، وبميل هيستيري إلى الكذب والغش، ووقوعه تحت تأثير نوبات الحمى العصبية، وإنه كان ضحية الأشباح والأرواح، فكان يعاني من ارتعاش جسماني وخلل عقلاني كانا هما السبب في تهيؤاته البصرية ورؤاه، ومن الخوف العصابي، وانفصام الشخصية، وتشنجات كتشنجات الكهان ليوهم من حوله بطبيعته فوق البشرية، كذلك تلقيه الوحي من إنسان في مستهل دعوته، كل هذه الدعاوى قد سقطت وثبت عدم صحتها، بل العكس هو الذي حدث، فالذين قالوا بهذا الكلام لم يحلوا المشكلة بقدر ما زادوها تعقيداً، ويجب أن يساورنا الشك مستقبلاً في إمكانية إثبات أي ظاهرة خلل في سلوك محمد)[6].

ويصرون على عدم الاعتراف لمحمد بالنبوة، ولكن لا يستطيعون تجاهل القوة الروحية الهائلة التي كان يتمتع بها لما رأوا من أعماله وأفعاله وأقواله: (..أن من غير المفيد فهم محمد خارج إطار زمانه وبيئته. ولقد كان أنصاره الذين رافقوا وحيه، ينظرون بإيمان إليه وهو ما بدا في نظرنا شيئاً غير عادي. إن بعض وسائل التنويم الذاتية، والتأملات، وممارسات الغيبوبة، كانت معروفة لدى متصوفة الشعوب المتقدمة حضارياً ضمن شبه الجزيرة العربية وحولها ولربما حولها محمد من صيغتها الخام إلى عقيدة مطلقة صالحة، وربما تحقق له بلوغ القرب الإلهي جراء إيمانه بإمكان بلوغه بالصبر والمثابرة وبعض رياضات العبادة..)[7].

ومن مظاهر هذا التحول في الموقف الديني ما ذكرته المستشرقة شيمل(SCHIMMEL)، وقد جمعت في عبارة واحدة بين النقيضين، الصورة الكئيبة السابقة والحقيقة الجديدة: «.. لقد أثار محمد من الخوف والكره وحتى الازدراء في عالم الغرب أكثر مما أثارته أي شخصية تاريخية أخرى. فإذا ﷺ دانتي في كوميديته الإلهية في أسفل سافلين، فإنما كان يعبر بذلك عن أعمق

---

(6) Lohmanu. The.P.S.P.

(7) lohmanu. The.P.S.P.

المشاعر لدى مسيحيي القرون الوسطى الذين لم يكونوا يدركون بعد، بأن ديناً جديداً إيجابياً ناجحاً وُجد إلى جانب المسيحية، يشكل معتنقوه جزءاً هاماً من حوض المتوسط الذي كان خاضعاً للهيمنة المسيحية)[8].

والآراء السابقة تمثل مرحلة زمنية غلبت عليها سلطة اللاهوت وطابعه، لا بالنسبة لشخص الهول فحسب، بل لكل ما جاء به الإسلام من تعاليم. وقولنا هذا لا ينفي وجود استثناءات هامة على صعيد الفكر، كانت تظهر تمرداً على القاعدة وخروجاً جريئاً على الرأي العام، وتضيء بآرائها المتلألأة حلكة الفكر الأوروبي في أشد الليالي قتامة. وإذ تتجه نيتنا إلى عدم الأخذ بالظواهر الرومانسية ـ على جمالها وإيجابيتها ـ، وبالتقيد بدلاً من ذلك بالظواهر الدرسية ـ على سلبيتها ـ، فلابأس من الإشارة إشارة عابرة إلى شخصية جدُّ مرموقة من القرن السابع عشر كان له رأي في الإسلام ونبيه، كلفه الكثير الكثير وعانى منه الأمرّين، إنه (رايسكه)، المؤرخ، اللغوي، شهيد الأدب العربي كما يسمونه، الذي حرم من كل شيء، وكان من الممكن أن يتحصل على كل امتياز في وقت عصيب جداً مقابل شهادة منه واحدة، تصف محمداً ﷺ بأنه (نبي مزيف غشاش، وتصف دينه بأنه خرافة مضحكة)، وأدلى الرجل بشهادته (.. فرأى في ظهور محمد وانتصار دينه ضرباً من الحوادث التي لا يجد لها العقل البشري تفسيراً، بل يرى فيها بنفس القدر مشيئة إلهية عليا)[9].

ومنذ ظهور نهج الدراسات المقارنة واعتماده منهجاً معترفاً به وله في الجامعات الأوروبية، اختلف أسلوب التعامل مع الإسلام ورسوله معاً، وغدا بالإمكان رفض أي رأي لا يلتزم بخط فكري معين. ومنذ ذلك الوقت أيضاً بدأ التفكير في طعن الإسلام ولكن بإسلوب رصين مهذب، ظاهره العلم والمنهجية وباطنه الدس والهدم. لقد حاول الدارسون الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين الأنبياء والملل منذ عهد إبراهيم عليه السلام، بقصد حشر نبوة محمد ﷺ في

---

(8) Shuimmel. Amme Marin. und Mohammad ist sein Prophet. Dusseldorf 1981. introduction.

(8) Schimmel.P. Mouhammad, dos schoine Beild P.21.

(9) Fu¨ch.J.A. Studiun in Europa 1955 Leipzig. Reishe, Sein lebem 1783.

مربع ضيق، والقول بمخالفة النبوة الإسلامية لنبوات السابقين فماذا تقول تلك الدراسات؟

إن التوراة لم تشر إلى التكليف والوحي وكل ما جاء: «وتكلم الرب إلى إبراهيم: أترك أرضك وأهلك وبيت أبيك وارحل إلى الأرض التي سأريك، لأنني سأجعل منك شعباً كبيراً، واجعل من اسمك شيئاً عظيماً ولتكون مباركاً: موسى 12، (1-3) ولقد قدّم القرآن عرضاً مشابهاً للشروح اليهوديةMIDRASCH ـ والحديث له ـ ذكرت بالإسم لا باللفظ: ﴿**وكذلك نري ابراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكونَ من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هٰذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هٰذا ربي فلما أفل قال لئِن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هٰذا ربي هٰذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون.. إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾ الأنعام 75 -79.

والملاحظة الأولى التي سجلها الكاتب هي أن هداية إبراهيم والأنبياء الآخرين المشار إليهم في القرآن الكريم لا تتفق مع ما ذكرته السيرة عن حالة (اللاوعي) التي كان يتعرض لها محمد..[9]!

وبخصوص موسى عليه السلام فقد جاء: (.. وبينما كان يرعى الأغنام في الفيافي البعيدة ذات مرة، قادته قدماه إلى جبل الرب، جبل الطور. وهناك تبدى له ملاك الرب كشعلة نار خرجت من شعاب شجرة شوك. وحين نظر إليها رأى الشجرة والنار تشتعل فيها دون أن تمسها بسوء. هنا حدّث موسى نفسه: سأذهب إلى هناك لأنظر في ذاك الأمر العجيب كيف لا يشتعل الشوك؟! وحين رأى الرب مقدمه ناداه من بين الشعاب: يا موسى! يا موسى! ورد بقوله: ها أنا ذا. فقال الرب لا تقترب. اخلع نعليك لأن الأرض التي تقف عليها أرض مقدسة وقال: أنا رب أبيك، رب إبراهيم وإسحٰق ويعقوب. وغطى موسى وجهه خشية أن يرى الله جهرة (هنا كلفه رَبه بإخراج بني إسرائيل من مصر)[10]

---

(10) Enwin. Gna¨t, Mohammad Iserufug. Bustan 8i 1967 P.20-28.

موسى (3) 2.

والقصة التي ذكرها القرآن قريبة الشبه جداً من الواقعة المذكورة. قال تعالى: ﴿وهل أتاك حديث موسى. إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ (طه 10 -17).

والملاحظة الثانية للكاتب هنا، هي الإفادة في تحديد طبيعة الشيء الذي تجلى لمحمد في غار حراء؛ أهو الرب أم الملاك، واستبدال رسالة موسى برسالة محمد[11].

ـ ومن إنجيل متى تعميد المسيح: (.. فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء. وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه وصوت من السماء قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت) (3/16) ومن الحوادث التي سبق وصفها يستفاد أن الوحي الذي يرى ويسمع وقد يسمع فقط وقد يرى ولا يسمع.

ـ وأما عن نبوة محمد، فقد استند في معلوماته إلى مصدرين: القرآن الكريم والسيرة النبوية. وبمقارنة النصوص والآيات الكريمة المتعلقة بحادثة الوحي مع قصص التوراة والإنجيل وما في حكمهما استخلص أن الآيات الكريمة لا تقدم شيئاً غير عادي أو شيئاً خارقاً حسب تعبيره. ولقد استبعد الرواية الخاصة بورقة بن نوفل وذلك لأسباب (نفسية) تتلخص في أن الموصى إليه لا يطلب الرأي من رجل على غير دينه وفي مسألة خطيرة هي من صلب عقيدته. واحتج بأنه كان لورقة مثل هذا النفوذ على النبي لوجب عليه ـ النبي ـ أن ينخرط في دين النصرانية مثله. ولا يكتفي الكاتب بهذا القدر بل يتساءل في دهشة: كيف يسمح لتلك الأسطورة أن تختلق وفيها غض من مكانة الرسول. ولم يستبعد أن يكون الرسول هو الذي (ابتدعها) كوسيلة (تبشيرية) لدينه الجديد[12].

(11) Ibid.

(12)

ـ وعن المعراج قدم هذه الصورة: (.. تعرفتُ في شخص يسوع إلى إنسان عرج به قبل 14 سنة حتى السماء الثالثة. أن صعد بجسده وروحه لا أعلم الله أعلم. وأعرف أنه سيق إلى الجنة فسمع كلمات يستحيل وصفها ولا يسمح لبشر بالنطق بها. إن كان دخل الجنة بجسده وروحه لا أعلم الله أعلم.!

ـ وعن المشاهدة في العهد القديم نقرأ عن (Isaya)، أحد أنبياء الله الأربعة إلى بني إسرائيل «.. وبينما كان يتحدث من خلال الروح القدس، وكان الجميع منصتين، توقف عن الكلام فجأة ونزع وعيه منه فلم يعد يرى أحداً من الرجال الذين كانوا يقفون أمامه. فكانت عيناه مفتوحتين وفمه أخرساً. ونزع الشعور من جسده لكن نفسه كانت لا تزال فيه لأنه رأى وجهاً».

ـ وتحدثنا سورة الإسراء أيضاً عن مشهد من مشاهد الوحي: ﴿.. **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً**﴾ الإسراء/62.

ـ وعن شجرة السدرة هذه نقرأ هذه المقتطفات المأخوذة من ملاحم أفرام الآشوري أو ما يسمى بالتراتيل الفردوسية حول رحلة في الجنة:

«بأم عينيّ رأيت الجنة..
وفي ذلك الكتاب وجدت المدخل والمعبر إلى ذلك الفردوس.
ودخلت..
ظلت العين خارجاً ودلفت الروح.. ورحت أطوف
بلا كتاب
وهناك رأيت أشجار الحق»

ويستطرد في تلك التراتيل قائلاً:

الجنة مقسمة إلى درجات: السفلى للأدنين، وجنباتها للمتوسطين، وذروتها للعليين. بلى، ربما كانت الشجرة الممجدة، شجرة الحياة التي من ضيائها شمس الجنة.

أوراقها ملساء. وعلى صفحاتها تنعكس جمالات الأرواح في الروضة. تنحني كما لو كانت تريد الصلاة.. وفي الوسط غرس شجرة وملأها بالخشية وأحاطها بالخوف. وفيها سمع آدم مرتين: لا تأكلا من هذه الشجرة إنها مجتنبة..!

ـ وثمة إشارة إلى إخفاء شجرة السدرة: (.. والملائكة SERAPHYME)، تسعى لإخفاء ضياء الأشجار وأغصانها بأجنحتها كي لا يشاهد سيدها.

ولعل هذه التورية أو (التغشية) هي التي أرادها القرآن: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾ النجم 13 -18 يمكن أن نجمل الأفكار العامة في هذه الدراسة بالآتي[12]:

١ ـ أن السيرة النبوية، بالرجوع إليها، حرصت على تصوير الرسول وهو في حالة غيبوبة، EXTASE، عند تلقي الوحي، الشيء الذي يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿**فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً**﴾ طه 114.

٢ ـ ليس في القرآن الكريم إشارة واضحة ولا دليل ثابت لأول واقعة وحي، وإن التأكيد جاء من غير القرآن...

٣ ـ يستفاد من الروايات التي وافانا بها التوراة والإنجيل حول تطابق وانسجام وحي الأنبياء، أن الوحي حادث هام لا يُنسى ولا يكتم ولا يجوز أن يهمل بصورة من الصور. والوقائع المشار إليها لا تتمشى مع الحقائق التالية:

(أ) أن سورة اقرأ لا يصح اعتمادها (منطلقاً نفسياً للنبوة). وإن الرؤيا الثانية حدثت بعد الوحي بوقت طويل، أي بعد الصدام بأهل مكة فقط بل هي سلاح في النزاعات إذا تساءل:

(ب) إن لفظ (اقرأ والقرآن)، سبقت إليها اللغات والديانات الأقدم سماوية

---

(12) Ibid

كانت أو غير سماوية، وأنها تنحدر من أصول آرامية وعبرية. أما المرادف في العبرية فهو كلمة qri¯a, أو Miqr¯a, وفي الآرامية المسيحية الشرقية qerjan¯a، وإن اللغويين رأوا في وزن (فُعلان) (قرآن) تعبيراً منتحلاً لا أصيلاً. والمعنى الذي يؤديه اللفظ الذي يرجع تاريخه إلى 722 سنة قبل المسيح هل (أنقل أو بلغ) لا كما جاء في السيرة إقرأ بمعنى (اتلُ). أما الغاية التي كانالرسولیرمي إليها، فهي القول بأن الكتاب ليس من بنات أفكاره وإنه ناقل فقط.

ولكي نوفي الدرس حقه، فلن نتوقف الآن لمناقشة هذه الأفكار وتقليبها على وجوهها المختلفة، بل سنمضي قدماً في تسليط مزيد من الضوء ورفدها بوجهات نظر أخرى مشابهة، مستقاةٍ من مصادر نهلت من مشرب واحد.

لقد أنحى أحد الدارسين الأجانب باللائمة على الشارحين المسلمين لأنهم لم يرجعوا إلى كتاب الله جيداً قبل البحث عن تفسير لظاهرة الوحي في سورتي النجم واقرأ. وقد استدل الباحث بالقول المنقول عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: «كان قلب النبي يرى وعينه نائمة». ومثل هذا القول يشترط حسب رأيه النوم المسبق، بينما الآية الكريمة التي تلي 53/17 تقول: ﴿**ما زاغ البصروما طغى**﴾..!! يضاف إلى ذلك عدم الاتفاق حول السورة التي سبقت في النزول.

ـ وتحدث المستشرقان، الألماني رودي باريت، والإنكليزي مونتجمري واط عن شيء غير معتاد في النبوات[13]، قدمته سورتا النجم والتكوير. فبينما يسلّمان بوجود مشاهدات ينفيان أن تكون لهاتين السورتين أي صلة بتلك المشاهدة. لقد اعتبرا ذلك النوع من المشاهدة وليد توتر وتفكير دائم مسبقين. إنها ليست هدفاً، وليست حديثاً موجهاً إليه ﷺ. لقد تحدث واط عما يسمى (INTERIOR LOCUTION) وبعبارة أدق، تحدث عن (نطق ذهني INTELLECTUAL LOCUTION). لقد استقبل النبي خبرا بدون كلمات، بصورة داخلية خالصة، روحية، وبالفهم. والمقولة هنا محاطة بالكتمان المبهم الغامض الذي تكتنفه الأسرار، ولاذ محمد إزاءه بالصمت. إن القارىء الكريم مطالب بأن يفكر معي، فكلانا معنيان بهذا الأمر. إنه بقوله هذا لم يخالف القرآن الكريم ولا السنة من حيث الظاهر، وهو يريد الوصول إلى شيء فهل عرفت ذلك الشيء؟!

---

(13) Ibid

- وطالما أن الأمر يتعلق (بالوحي) (INSPIRATION)، فقد رجع المستشرق لوهمان[14] إلى أصل الكلمات ودلالاتها وتطبيقاتها في القرآن الكريم، وتوصل في النهاية إلى أنها الإلهام والوسوسة، وبها لا يخاطب الأنس وحدهم ولا هذا العالم بمفرده، وإنما العالم الأكبر والأصغر والجن والإنس معاً والملائكة والشياطين وأصدقاؤهم الكفار (الآية 121 سورة 6).

- وانتقل لوهمان إلى سيرة الرسول السابقة إلى التحنث. فلم يجد فيه سلوكاً متفردا خاصا، لأنه بني على رأي ابن هشام من أن التحنث عادة قرشية، وإن (حابل) بطريرك ايبلا كان يتحنث في غار ويترك مواشيه ليفكر في زوال العالم، كما أن يوحنا المعمدان وبوذا وبولس الرسول وكثيرين غيرهم كانوا يعتكفون زهداً. وفي هذه أيضاً أدعوك إلى التفكير معي فيما يريد قوله والوصول إليه ونحن نتحدث عن ظاهرة النبوءات بتطبيقات تاريخية مجربة مدروسة حسب رأيهم. إن التحنث الذي دافعنا عنه ورأينا فيه ميزة تتحدث إلى جانب النبوة رأى فيها نوعاً من الإعداد النفسي والذهني ظل ينخر في نفسه (ﷺ) حتى ظهر، ذلك الوحي، ولكن ليس فجأة الذي عودنا أن ينزل على الرسل والأنبياء الآخرين دون سابق إعداد فهل ترى؟!!

- «وبكلمة جامعة يمكننا القول، إن محمداً في هذا الوقت من حياته التي تميزت بالميل إلى الوحدة، كان شخصية طلائعية حساسة. وهنا حدث بعدئذ، وبعد تمارين روحية طويلة وشاقة، أن جاءه الوميض المتقد، فاكتشف أنه رسول، وبذلك قطف أولى ثمار تدريباته الرهبانية»[15].

وبعد هذا الشرح، لا أعتقد أن الفكرة في حاجة إلى مزيد من الإيضاح.

- وثمّ فكرة أخرى هامة لا أريد أن أبرح هذا الموضع قبل أن أشير إليها إن رد رسول الله ﷺ على نداء جبريل عليه السلام (اقرأ)، كان واحداً من ثلاث حسب اختلاف الروايات: ماذا أقرأ؟ ما أنا بقارىء! واحتمال ثالث هو (لن أقرأ) وهو الذي تبناه المستشرقون وأيدوه ورأوا فيه صيغة رفض صحيحة لها مثيلاتها ومرادفاتها في النبوات السابقة: أليس ذلك عجيباً؟! والأعجب من هذا العجب،

---

(14)-(15) Lohmanu, theodor sura 96. Iv Teil.P.462. 63-44.

تعجبهم من السيرة التي لم تشر إلى الوسط ولا إلى طبيعة المناسبة التي سيقرأ محمد فيها!!

ـ وماذا أيضاً عن الفترة أو انقطاع الوحي التي دامت زهاء ثلاث سنين، ونزلت بعدها سورة (الضحى) بعد انتظار طويل؟ في هذه المناسبة يقول منتجمري واط: «لقد تخلى محمد ثلاث سنوات بطولها عن دعوته إلى أصحابه سرا. وبعد انقضائها عاد إلى دعوته العلنية. ومن حقنا أن نفترض بأنه كسب خلال هذه الفترة بعض الأنصار، الذين اقتنعوا بصحة وأصالة دعوته. إذن يجب علينا أن نفرق بين مرحلتين من مراحل الرسالة ونشاطها، مرحلة خاصة ومرحلة معلنة. إن الفترة لا تزيد عن كونها تكريساً للزمن، للاستعداد في سباق محمد كرسول. فمحمد لم يصبح عالمياً رسولاً بضربة واحدة كما هو الشأن في المسيح، بل بدأ بعشيرته الأقربين[16]؟؟!! سخرية في قالب الجد...

إن الدراسة السابقة كما رأينا من الأمثلة المضروبة تقوم على المقارنة لاستخلاص الفوارق. وهي امتداد لأول محاولة في هذا الاتجاه ظهرت في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وكان صاحبها المستشرق الألماني اليهودي ابراهام جايجر[17]. ولقد تحدث جايجر في مقدمة كتابه عن الشروط والضوابط التي يجب اتباعها للجزم بعملية الأخذ والاقتباس بين نبيين فكانت على الوجه الآتي:

(أ) ما يخدم المقارنة من الآراء والمقولات.

(ب) لا تصح المقارنة بين المقولات (القرآنية) واليهودية إلا إذا تيقنا من أن الأولى تم تدوينها بعد الثانية وأنها كانت موجودة لدى الكنيس.

(حـ) أن يجتهد الباحث في السؤال حول، ما إذا كان مجرد التشابه بين فريقين عقائديين مختلفين يعني بالضرورة اقتباس الواحد من الآخر.

وإذا اعتمد جايجر ومن سار على نهجه مبدأ المقارنة في رسم ملامح النبوة ـ وأغلب هؤلاء من اليهود ـ فلقد استنت طائفة أخرى منهجاً آخر وهو التاريخ.

---

(16) Watt.M.Mohammad at Mecca OXFORD 1953 P.52.

(17) Geiger. Abraham. Was hat Mohammad as dem Jodertm afgewmm 2. recvidierte Aflage Leipzig 1902. EINLEITUNG.

ففي عام 1843 ظهر كتاب جوستاف ڤايل «محمد الرسول، حياته وتعاليمه»[18]. وخلال الأعوام 1858 وحتى 60، قدم فرديناند فوستنفلد سيرة ابن هشام في نصها الأصلي. وقبل قرن وربع قرن من الآن ظهر كتاب تيودور نولدكه (تاريخ القرآن)[19]. وبعد عام من ذلك التاريخ ظهرت الترجمة الألمانية لسيرة ابن هشام[20]. ولم يقف من تلي هؤلاء متفرجاً، بل اسهم بنصيبه ولكن في نفس المنحى والاتجاه. وكان من أبرز هؤلاء الفرنسي ليون كاتان[21]، والهولندي سنوك هورجرونيه[22]، والمجري جوزيف هوروفتر[23]، والألمانيان فرانتس بوهل[24] وتور آندريه[25]، والإنكليزيان ريتشارد بل[26] وزميله مونتجمري واط[27]. وسائر هؤلاء الأعلام كان لهم نصيب في رسم صورة النبي العربي وما أنزل عليه والبيئة التي عاش فيها. ولعل أهم هذه الكتب وأكثرها لفتاً للنظر كتاب هيرمان شتيجلر (عقائد الإسلام)[28] الذي حاول تصدير القضية على النحو التالي: «كيف ينظر المسلم بعين اليقين، وكيف يجري تصنيف كافة الأسئلة التي يوجهها غير المسلمين من هذا المنطلق حول تطور البنية التاريخية الإسلامية).

قلنا إذن؛ إنه المنهج التاريخي إلى جانب منهج الدراسات المقارنة، معاً وجنباً إلى جنب، تحركاً سويّة كمنهجين (علميين) يحظيان بقدر وافٍ من الاهتمام، في رسم ملامح الصورة. ومن التاريخ وقع الاختيار على مصطلح جديد هو

---

(18) No¨ldek, Theo. Ceschichte des Qurans 2 Auflage von sehuwalles Leipzig 1909.

(19) Fiuge. Gustav, Mohammad. sein Leben und Lehone 1875 Leipzi¨g.

(20) Translation. Fbmhsan Biognaphie.

(21) Catoun, Leone. Ammali dell blam I. Mailand 1905.

(22) Horjoroge, Smouch. oher Lohman.

(23) Horanits.V.Quran Untersuehyer Berhim-Leipzig 1926.

(24) Bahl. Franz. Das Lebem Mohammads. Heudellong 1955.

(25) Andrac. For. Die Legenden ron Bermfug. M.in le monde ornetela VI Uppsula 1912.

(26) Isell. Richard. The Oeiger of Islam in the doristain invronment london 1926. introduction.

(27) the same source P.52.

(28) Sthriglecha, Herman, die Glaubes herbe M.ind Wirien 1962.

(الإسقاط)[29]. (PROJIZIEREN). والإسقاط هو تصور الذات في الحدث أو الواقعة التاريخية. قالوا: إنالرسولﷺ، وهو الخبير، الملمّ، المثقف، العارف بأحوال وثقافات الأمم السابقة، كان يعلم أن في حوزة الجاليتين اليهودية والمسيحية كتباً مقدسة، وإن هذه الكتب من أصل سماوي، وإنها في جوهرها متطابقة فيما بينها من جهة، ولما كان ولما كان الأمر كذلك، وجب إذن أن تتطابق رسالته إلى أمته مع هاتين من جهة أخرى وفي تصور آخر، أنه عاش تلك الحقيقة في حالة أشبه ما تكون بلا انفصام. وانطلاقاً من هذا التصور، فإن كثيراً من المضامين التي جاء بها الإسلام، وخاصة قصص الأنبياء، والخلافات العقائدية المتعلقة بنبوة عيسى وحادثة (صلبه)، والتثليث (TRILITAT)، بل وحتى الأفكار المركزية في العقيدة الإسلامية كوحدانية الله، واليوم الآخر، جميعها، كانت نوعاً من الإسقاط، أو وليدة حادثة معينة طبعت حياة الرسول وأثّرت في مجرياتها[30]. وقد نشط خيالهم، فذهبوا إلى القول بأن الرسول ﷺ، استفاد من قصص الأنبياء والأمم المندثرة وأخبارها في تقديم العبرة والعظة لأمته لتعرف ما ينتظرها إن هي عصت رسولها. والشيء الآخر أنه، رسول الله، رأى في ذكر الأنبياء وتخليدهم نبوة متجددة، سواء كان ذلك بالنسبة لنوح، أو إبراهيم، لصالح ولغيره من الأنبياء. «.. وقد اعتبر محمد قصص الأنبياء الأولين أو الحوادث التي يستقيها من التاريخ في منزلة الوحي، وألبسها ثوب العربية وجعلها ذات بنية واحدة..».

لكن نظرية التطابق الجوهري بين سائر الأديان السماوية والتي دافع عنها بعض المفكرين المسلمين مثل البيروني الذي ذهب في اختياراته حداً أبعد مما يجب، إذ استعار عبارات ماني الشهيرة: «.. إن الحكمة والأعمال هي التي لم تزل رسل الله تأتي بها في زمن دون زمن. فكان مجيئهم في بعض القرون على يديالرسول الذي هو البدء في بلاد الهند، وفي بعضها على يد زرادشت إلى أرض فارس، وفي بعضها على يدي عيسى إلى بلاد المغرب، ثم نزل هذا الوحي وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يديّ أنا، ماني رسول إله الحق إلى

(29)-(30) (محاضرة باللغة الألمانية 8 نوفمبر 1951) في جامعة تيونجن الصفحات 218-215.
Poret. Rud. Mohammad-Geschichtabild.

أرض بابل»[31]. نقول: إن نظرية التطابق التي دعا إليها الرسول لم تعد قائمة بعد المعارضة التي وجه بها من قبل (أهل الكتاب) بعيد هجرته إلى المدينة. وكان من آثار ذلك أن أعاد تقويم موقفه: «إن الديانتين اليهودية والمسيحية في الصورة التي ظهرتا بها في عصره تمثلان التشويه وتزوير الحقيقة الواحدة..)[32].

تلك هي الصورة التقريبية التي حصلنا عليها ونقلناها دون تزيين أو تحسين. ومع ذلك، فلا نعتقد بأن المسألة سُويت على هذا الشكل. فثم عامل ثالث كان له أثر غير هيّن في رسم صورة النبوة، لا كما يُمليها الواقع التاريخي والحقيقة الأزلية عن نبي هو سيد المرسلين وخاتمهم، بل كما أرادتها خلافات المسلمين وتعددات نقولهم. أريد أن أسجل بمرارة وحرارة، حقيقةً أتمنى أن يضعها نصب عينيه كل مسلم، كل داعية، وكل من في قلبه غيرةٌ على الإسلام ونبيه: (إذا دافع عن محمد أحدٌ في هذه الحرب الفكرية الطاحنة التي نخوض، فإنما دافع عنه كتابه الذي أُنزل عليه فقط. أجل! إن السلاح الوحيد الذي أشعر بأنالرسولقد شهره في وجوه أعدائه وأعداء دينه في حياته وبعد مماته هو قرآنه لا غير. وعظمة هذا القرآن لم تتأتّ كما قد تتوقع من إشادة به، بل ذمٍ له فيه كل المديح. إن أعظم مأثرة ـ وليس في القرآن الكريم وكماله ما نفاضل بينه ـ أنه أوجز في العبارة، واقتصد فيما يزيد عن حاجة العقيدة السليمة، وقطع على العقل والحواس كل محاولة فاسدة للتجسيم والتجسيد والتصور، وللكيف والكم، وفصل ووصل في الحال والتّو بين الله والعبد دون أن يَمسَّ ذلك بجلال الخالق أو أن يحط من قيمة المخلوق). ذلك هو الدرس الكبير الذي تعلمته من جولاتي مع هؤلاء المستشرقين..!!

لن أبدأ ببسط مسألة السيرة وما اعتورها من هنات وثغرات، ولا بالرّد على ما جاء من افتراءات المستشرقين وتصوراتهم العقيمة، وإنما ببعض ما أراه ضرورياً لشرح أقوالي السابقة وإظهار خطأ التناول المسيحي لحقيقة الإسلام. والآن لا أغالي لو قلت؛ إنهم وجهوا إلى الإسلام لائحة اتهام من موسوعة تشريع غربية. ولعل أكبر ما ارتكب من خطأ هو القول في تفسير سورة النجم: «..

---

(31) Horontz. Jraph-Ronman untersuelmga Jahngang? P.67.

(32) P. Rud. G.B. Mohammad P.230.

شريطة أن يكون الرّب قدَ هبط من السماء ووصل إلى الأفق. ما إذا كان الرسول قد رأى الظاهرة (التجلي) هناك واقفاً أو قاعداً على العرش، فإن ذلك يتوقف على المعنى الغامض للمصطلح (استوى) 35/6». ثم.. «.. لا بد وأن الله تجلى للنبي في هيئة ضخمة في وضح النهار، بحيث أن الله انسَّل بوضوح من سماء الليل الحالك[33]. وتعقيباً على ذلك نقول: إن (شديد القوى) الذي رآه الرسول بالفؤاد (رؤية قلبية) ليس المولى بل سيدنا جبريل عليه السلام. والأهم أنَّ العقلية اللاهوتية تصر على معاملة كل الأديان من نفس منطلقاتها العقائدية ومفاهيمها المنحرفة عن الخلق والخالق. فإذا اشتكوا من أن القرآن اقتضب واختصر وأوجز، واكتفى بإشارات ضئيلة إلى الرؤى ثم صمت النبي فلم يقدم لأصحابه عن الكيفيات شرحاً ضافياً، ثم أقدم كتّابُ السيرة بعد قرنين على تقديم تصورات لم تُرق لهم، لأنهم وجدوا فيها اختلافا كبيرا حول قضايا حساسة تمس جوهر العقيدة وأهمَّ مرتكزاتها وهي صحة النبوة، ثم تطوعوا فبادروا علماء المسلمين بالنصح للعودة إلى كتابهم والبحث فيه عما يمكن أن يلقي المزيد من الضوء[34]، نقول: إنهم بذلك إنما فعلوا خيراً وأسدوا للمسلمين نصحاً صادقاً وشهدوا للقرآن بسلامة موقفه لأن القرآن ليس (إصحاحات) للتكوين والتجسيد والتجسيم بل هو كتاب يقدم للعقيدة حاجتها ثم لا يزيد على ذلك حرفاً واحداً..!!

ليس في عقيدتنا ربٌّ يتحرك، يهبط ويصعد، يشغل حيزاً وفراغاً، لهمستقر ومأوى يبرحهما إلى جهة دون أخرى وفي زمن دون آخر.

«ما كذب الفؤاد ما رأى» (53/11)، ذلك هو القول وكفى بالله شهيداً..!! أم أرادوا إلهاً آخر تبصره العين، وتسمعه الأذن، وتلمسه اليد، إلهاً إبناً، وآخر أباً، وروحاً قدُساً؟؟! في إطار كهذا لن تُفهم نبوة الرسول، لا، ولا العقيدة ككلّ أبداً..!! وتُفهم بقدر أقل، حين تقارنُ نبوة محمد بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام، فما بالك بمقارنة بين إمام المرسلين ببطرس اليهودي المندس الأفاق، أو بماني والمانوية وزرادشت والزرادشتية. عن هذه المفارقة العجيبة

---

(33) Lohmaun. The same sorce III TEIL.

(34) Lohmaun. The Same.

والمقارنة غير العادلة تقول المستشرقة شيمل على لسان الإنكليزي هاري ڤولڤسون: (.. مهما بلغت فصاحة العرب، ومهما تكاملتْ أشعارهم الرائعة، فلم يكن في وسعهم الإتيان بشبيه القرآن. إن هذه المنزلة المركزية التي يحتلها القرآن الكريم في تاريخ الإسلام توازي ظاهرة منزلة المسيح في المسيحية. إن تحول الكلمة إلى جسد في العقيدة المسيحية تقابل تحول كلمة الله إلى الكتاب في الإسلام. لذا فمن غير الجائز، باللاهوت وبالظاهرة معاً، مقارنة محمد بعيسى. ولقد عرف محمد بن عبد الله ﷺ منزلته جيداً، ولطالما نبّه من خلال الوحي إلى أنه بشر يوحى إليه: ﴿**قل إنما أنا بشر يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد**﴾[35] (43/5).

ولا سبيل إلى مقارنة لغة القرآن وفي أي فن كان، لأن اللغة ـ أية لغة ـ ليست الإسم والفعل والحرف، ولا المفردات والجمل، ولا الخبر والإنشاء، والنفي والإثبات، والحقيقة والمجاز، والأطناب والإيجاز، والذكر والحذف، والابتداء والعطف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير.

والحديث عن اللغة لا يبدأ إلا بعد الشروع في ضم الألفاظ إلى بعضها في تراكيب، وأحكامها فيما بينها في معانٍ، والصعود بتلك الألفاظ والتراكيب والمعاني لتأدية غرض بياني معين.

إن اللغة منتظمة كطوق منضد بديع. حبّاتُه مجتمعة تسرُّ الناظرين ومفترقة لا تعني شيئاً. هذه الحقيقة نقولها أيضاً لهواة المقارنة ورواد اللسنيات. فإذا كان في أسرة اللغات السامية من المفردات والألفاظ ما يُمتّ إلينا أو نُمتُّ إليه بآصرة قربى أو أكثر، فإن ذلك لا يضير لغتنا فكيف بقرآننا الذي قال تعالى فيه: ﴿**لسان الذي تلحدون إليه أعجمي. وهذا لسان عربي مبين**﴾ (النحل 103) وما بعدها.

إن فرية القرآن والغريب، وتسرّب بعض المفردات والآرامية[36] ليست جديدة. فلقد وعى الإسلام هذه الحقيقة وتعامل معها في الزمان والمكان المناسبين ولم يترك الحبل على الغارب: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا**

---

(36) (إن جميع المصادر متفقة على هذه المسألة عدا القليل منها)

Schmme. Annue. Same source.

وللكافرين عذاب أليم﴾ (4/48). وبناءً على ما تقدم فإن القول بوجود أصل لكلمة (اقرأ) لا يقلل من قيمتها، ولا يغضُّ من شأن احتواء سورة العلق وتضمنها لها، وارتباطها بمدلول ديني كبير.

والحديث في الأمر الإلهي (اقرأ)، يقودنا بالضرورة إلى الحديث حول أمية الرسول.فخلافاً لما ذهب إليه أغلب الباحثين الغربيين، نرى أنمحمد بن عبد الله هذا إعداداً خاصاً شأنه في ذلك شأن بقية الأنبياء مع فارق جوهري في طبيعة هذا الإعداد، فمشيئة الله قضت أن يختلف الأمر لدى هذاالرسول عما جرت به السنن لدى الأنبياء الآخرين. فإذا كانت المعرفة هي السبيل الذي يسلكه كل طالب حقيقة، فإن رأس الحكمة وينبوع المعرفة، القرآن الكريم، المعجزة الأزلية، استلزمت أن تكون أميةالرسول هي الشرط المتقدم الذي يخلع على المعجزة رداء الاعجاز وعلى حاملها صفة التنزيْه، ويجعل منها ـ أي الأمية ـ ترساً منيعاً لحماية المعجزة ومثاراً للافتخار والإعجاب..!! وهذا الموقف يستوجب منا التنويه إلى أمر خطير، وهذا الأمر يتعلق بإسهام المفسرين والمؤرخين السلبي في رسم صورة النبوة، والخلاف حول مسألة الأمية إحدى هذه المظاهر السلبية. فمنهم من اعتبرها علامة فارقة مميزة للنبوة وللمعجزة معاً، ومنهم من رأى خلاف ذلك وهم الشيعة[37]، إذ رأوا أنالرسول لا بد وأن يمتلك المقدرة على القراءة والكتابة. واستندوا في تأييدهم ذاك إلى أن فقدان الأسس الأولية للعلم في نبي مختار هو شيء مُشين. إننا نضم صوتنا إلى القائلين بالرأي الأول لقناعتنا بأن القول بعدم الأمية يعني حرمان معجزة القرآن من إحدى مرتكزاتها الهامة، وهي خلو ذهنالرسولمن أي تصور ديني ناجح، ويضعنا من حيث لا ندري ولا نريد في صف المؤيدين لاقتباسات سابقة تشكل محور الاتهامات الموجهة ضد نبي الإسلام ورسول العالمين..

إن القول الذي تبناه المستشرق الأنكليزي واط، والقائل بأنالرسول لما جاءه الأمر (اقرأ) تمرد عليه[38]، ولهذا المستشرق الحق إن هو ذهب في تفسيره هذا المذهب، طالما أن هناك ثلاث روايات إسلامية حول هذه النقطة الجوهرية

---

(37) الجزء الأول تفسير سورة 96 Lohmaun.

(38) المصدر السابق. Watt.M.

الحساسة: إنها الرسالة..!

ولعل العلامة مالك بن نبي أحسن صنعاً حين قدم لنا تصوره حوله هذه الكلمة العظيمة: «.. اقرأ، هي الكلمة الأولى التي تفتح لها أول ضمير إسلامي وهو ضمير محمد، وتفتح لها بعده كل ضمير مسلم. إن الحروف حقاً هي أداة النقل للروح، لكل رسالة ولكل بلاغ، وهي الحامل والرمز لكل معلومة..

وهكذا نرى كل ملامح هذا المجتمع النفسية تتغير منذ نزول (اقرأ) تغيراً يتولد عنه المناخ العقلي الجديد. وحسبنا أن نقرر بأن مساهمة الفكر الإسلامي في تنمية تراث الإنسانية العلمي لا تقدر فحسب بإنجازات يقررها أو ينفيها المستشرق حسب هواه بل تقدر بالتغيير الجذري الذي أحدثه المفهوم القرآني في المناخات البناءات العقلية منذ كلمة (اقرأ)[39].

وفيما رأوا أن هذه الكلمة لا تشكل المنطلق النفسي الصحيح للنبوة، سدد مالك بن نبي هذا الرأي وصححه بعبارته الآتية (.. بينما ينفتح العهد القديم منذ السطر الأول في سفر التكوين على عالم الظواهر المادية، وينفتح العهد الجديد في إنجيل يوحنا على عملية التجسيد، ينفتح القرآن الكريم على الجانب العقلي: إقرأ..)[40] أي عيب في هذا الحديث؟!

قال: «فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: إقرأ. فنهضتُ من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا..». قال: (فخرجت أريد ذلك، حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول: يا محمد. أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل صافٍ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد. أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فوقفتُ أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحيته منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي...)[41].

---

(39) مالك بن بني / الظاهرة القرآنية

(40) مالك بن بني / الظاهرة القرآنية

(41) السير/الطبقات/تاريخ الطبري/المغازي

لقد اختلط الأمر على الجاهليين في بيئة تلعب فيها الأخيلة والأرواح والأشباح دوراً رئيساً في حياة الإنسان. كيف لا عقائد أهل الجاهلية ترى أن للأرواح تأثيراً عليها أكثر من تأثير الآلهة؟.

لقد كانالرسول منشغلاً في أمر نفسه انشغالاً يفوق كل ما يفكر فيه قومه وعشيرته. لقد خشي أن يلتبس الأمر عليه وهو الخبير ببيئته الملمُّ بأحوال وطنه. فانظر إلى قوله وقد غلب عليه الحرص والتحفظ: «قال: إقرأ باسم ربك الذي خلق.. ثم انصرف عني، وهببتُ من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً، قال: ولم يكن من خلْقِ الله أحدٌ أبغضُ إلي من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما..»[42].

ولم تتخلَّ المرأة العظيمة عن زوجها في ساعة شدته وضيقه، فأرادت أن تستجلي حقيقة الأمر وأن تتعرف على طبيعة الظاهرة: «يا ابن عم. أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتي؟ إذا جاءك فاخبرني به. فجاء جبريل عليه السلام فقال رسول الله لخديجة: هذا جبريل فقد جاء فقالت: نعم فقم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله فجلس عليها. فقالت له تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى، فتحول رسول الله فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس في حجري فتحول فجلس في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحسرتْ فالقتْ خمارها ورسول الله جالس في حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. فقالت: يا ابن عمِّ اثبت وابشر فوالله إنه لملك وما هو بشيطان»[43]. أعظمْ وأكرمْ به من امتحان واختبار: نفسيٍ.. عقليّ.. خلقيّ..!

أجل. لقد فعلتْ ما فعلتْ بعد أن سمعت منه حديثاً مفعماً بالشكوى والأنين: (أن الأبْعدَ لشاعرٌ أو مجنون فقالت: أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ما كان الله ليتصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك..)[33].

---

(43) (42) المصدر السابق.

(44) د. محمد دراز/النبأ العظيم/القاهرة 1960 م .

وقالوا: إن محمداً أسقط نفسه في التاريخ. اطلع على قصص الأنبياء السابقين، وعرف أن الكتب السماوية لا ينبغي لرواياتها أن تختلف أورد قصصهم لاستخلاص العبرة والدرس، والتذكير بسوء العاقبة لكل أمة لا تطيع نبيها. كل ذلك كي يضمن ولاء العرب باعتباره نبي الأمة في ذلك العصر[45].

إن هذا التصور مجرد استنتاج، اجتهادٍ لا يستند إلى أية حقائق تاريخية. إنه تصور يقوم على التأويل والتخمين والربط. وخير من يجيبنا هنا هو الدكتور دراز في كتابه القيم (النبأ العظيم): «.. ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون: إن التاريخ يمكن وضعه أيضاً بأعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون: إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية.. أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟»[46].. ويستطرد الدكتور دراز «محمد ﷺ لم يكن من أولئك أو هؤلاء».. **﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾** آل عمران 144. **﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾** القصص 102. **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾** العنكبوت 48.

ومن لطائف وظرائف الصدف أن المستشرق باريت تعجب في مقالته من التفاصيل الدقيقة التي يلم بها الرسول[47]. ها هو الدكتور دراز يرد ثانية وكأنه صوت يأتي من وراء الغيب: (..لا نقول: إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين، فإن هذه النتف اليسيرة قلما تغرب عن أحد من أهل البلاد والحضر، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنلْه يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين.. حتى الأرقام، فترى مثلاً في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومه الف سنة إلا خمسين عاماً، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم لبثوا في

(47) (46) (45) المصدر السابق.

كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية)[48].

والإسقاط التاريخي مرفوض: «يخيل إليّ أنه من العبث فهم محمد بعيداً عن زمنه وبيئته»[49] هذا هو الحكم الذي أطلقه المستشرق لوهمان بعد محاورة من مئات الصفحات. 464/ الجزء الرابع.

وبرغم هذا المنطق الحاسم، فإن قناعاتهم تأبى أن تلين ويصرون على القول بأن للبيئة الفضل في إفراز روح وفكر الرسالة الإسلامية، متجاهلين بأن الإسلام كان ثورة حقيقية على القيم الجاهلية.

فإذا كان الأمر كذلك فلنا ملء الحق في أن نتساءل: إذا كان لأصحاب الديانات أولئك مثل ما يُدعون من نفوذ وتأثير على جماهير الأعراب، فلماذا لم يقدروا أن يغيروا شيئاً من وثنية العرب على مدى ألفي سنة؟! ولو كان لتلك الديانات مثل ذلك التأثير الذي تحدثوا عنه، فلِمَ لمْ ينصروهم أو يهودوهم وقد خلتْ لهم الساحة قبل ظهور محمد على مسرح الأحداث؟ أجل. إذا كان للدينين مثلُ تلك السطوة والخطوة فَلم لم يحدثوا فيهم مثل ذلك الانقلاب الذي أحدثه الإسلام، وقد استطاع أن يحولهم بين عشية وضحاها من أمة كانت نسياً منسياً إلى أمة يُحسب لها ألف حساب. لقد رسم المستشرق النمساوي د. ڤودك الصورة المفزعة الآتية لمجتمع ما قبل الإسلام، فأين كانت الحكمة التوراتية والمحبة المسيحية، وما الذي منعهما أن تُسدي خدمة للجاهلين العرب وهي تعيش بين ظهرانيهم: (. . بعض الأخبار تحدثت عن الخشونة والقسوة، وعن أكلةٍ للحوم البشر. أما عن الثؤور والقتل فحدِّثْ ما شئت. وقبيلة بني حمدان كانت تقدم نذراً سنوياً، عروساً لأحد كبار الجوارح. وأشعارُ النابغة الذبياني تحدثت عن أن الدم كان يسفح عند الكعبة)[49].

والعجيب في الأمر أنه كلما صحّت المقارنة وتطابقتْ الملامح بين النصوص، ردّوا ذلك إلى ثقافة الرسول التاريخية، وإلى اطلاعه على ما جاء في

---

(48) المصدر السابق.

(49) P. Rudi: Mohammad und der Quran Manz. Volu 1980.

الكتب السماوية. أما حين يقع الاختلاف، فلا يقولون: إن كتبهم هي التي زُورتْ وغُيرتْ وحُرفتْ، بل يسعون إلى تبرئة أنفسهم من تلك التهمة وإلصاقها بالإسلام. وما كان لنبي أن تغيب عنه تلك الحقيقة: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». تلك هي النصيحة التي أسداهاالرسول إنصافاً لأهل الكتاب. وقد عبر المتأخرون على نفس المعنى معاصراً: (.. لا أنكر أن الكتب المسيحية واليهودية من أصل سماوي ولكن (ONLY)، في صيغتها التي كتبت بها من قبل المؤلف الأول..)[50]. ولم يستطع بطرس المبجل الصبر على هذا التصريح فعقب بقوله الشهير وهو يتميز حقداً مغيظاً: «.. لقد زعم المسلمون بأن اليهود فقدوا شريعتهم في طريق العودة من بابل حين ضل الحمار الذي كان يُقلُّ أسفارهم طريقه من شدة الازدحام. ولعل الشيء الأكثر احتمالاً أن اليهود كانوا مهملين، فإذا كان الأمر كذلك فكيف كان سيتسنى لهم أن يخبئوا شريعتهم ويحفظوا سرهم ألف سنة في صيغة لا يعرفها أحد ثم يعاد نشرها في صيغة مزيفة؟)[51].

تلك هي الصورة التي أردنا رسمها، علّها تقول للناس شيئاً. ولا نزعم بهذا الجهد المتواضع إننا أحكمنا الطوق وأحطنا بكل أطراف الموضوع، فالحديث عن محمد ليس بالأمر السهل الهيّن وأنت تعرف ذلك حق المعرفة. إنه الحديث الذي بدأ قبلنا بوقت طويل، وسيطوي بعدنا آجالاً وأجيالاً ثم لا تكون الدائرة إلا لمحمد ودينه مهما اشتد ظلام الصورة وارتجت ملامحها. بلى، إنه الرسول الحق الذي قال عنه المستشرق البروفسور رودي بارت بعد رأي وجهد وأخذ ورد: «يجب أن نعترف لمحمد وبصراحة كاملة بأنه كان مبلغاً لرسالة».

**عمر لطفي العالم**
**استاذ الاستشراق**
**كلية الدعوة الاسلامية**
**فرع دمشق**